حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثامن . شوال ١٤٣٩هـ / تموز ٢٠١٨م

٨

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة
قبل التعصيم

الأستاذ طالب علي الشرقي
رئيس اتحاد الأدباء في النجف الأسبق

بسم الله الرحمن الرحيم

منذ أنْ أطفأ الله (تبارك وتعالى) نار المجوس، وأربك همم المشركين ببزوغ نور الإسلام العظيم، دين التوحيد والعدل، وبعد الجهد والجهاد لإكمال الدين وإتمام النعمة، كان الأمر الإلهي ماضياً بانتقال الرسول الأعظم محمد(ﷺ) إلى الرفيق الأعلى، فصار على الأمة أن تباشر نشر أحكام الدين وتعاليم الشريعة، وإيصالها إلى ما أمكن من بقاع المعمورة. وشاء الله جل جلاله أنْ تخفق بيارق الإسلام على أرض العراق، وتكسر شوكة المتسلطين على مقدراته، وبعد تحقيق الانتصارات، كان لابد من تواجد المسلمين في الأرض المحررة، فكانت البصرة وكانت الكوفة..

والملاحظ أنّ البصرة التي سبقت الكوفة في النشأة لم تستفد من سبقها لتحقيق المكانة الأهم والأخطر من أختها الكوفة والتي حظيت بالتفوق السياسي والإداري والحضاري، وكذلك بمجمل أحوالها الجغرافية وفي أنواع سكانها. يقول الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبي: إنّ في البصرة أغلبية مضريّة من عرب الشمال، أمّا الكوفة فكانت أغلبيتها من اليمن، أي أنّ الكوفة اتصفت بالأصالة العربية، والبصرة اتصفت بالاختلاط والهجنة، وكان اليمنيون على جانب من الحضارة... أمّا العنصر العربي الذي نزل البصرة فضعيف الحضارة[1].

وإن الكوفة تمتلك شأنين كريمين، يمثل أولهما الموروث العقائدي المدعوم بالأخبار والروايات التي تسالم عليها جل الباحثين وأغلب المؤرخين في كون أرضها مباركة، ومسجدها من مساجد الإسلام العظمى (الحرم المكي، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد الكوفة) وإنّ شأن مسجد الكوفة وقداسته متصل بآدم(عليه السلام) ونوح(عليه السلام) والطوفان، وإبراهيم(عليه السلام) ومصلّاه، وبخاتم الرسل والأنبياء محمد(ﷺ) وأخبار البراق... ولا يزال الاعتقاد راسخاً إلى يوم الناس هذا..

أما شأنها الأخر: فيختص ببدء النشأة ودورها الجهادي والسياسي والمعرفي خلال فترة حكم الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان بن عفان، أي بحدود عقدين ونيف من عمرها، وسوف نبدأ - مقلدين مَن سبق - بموضوع.

التسمية:

اختلفتْ في تسمية الكوفة الأقوال والآراء، وأغلبها يعتمد القيل والقال، والذي يقوى عندي بعد النظر في مختلف المنقول: إن الصعيد الذي تجمّع فوقه جيش الفتح الإسلامي بعد تحرير المدائن لم يكن يحمل أسماً معيّناً، بدليل ما ذكره الطبري قائلاً: «كتب سعد إلى عمر: إني نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برّياً بحرياً»[2] أي أنه مطابق لما أراده الخليفة من المواصفات التي تخدم الجند وإبلهم وخيولهم ولم يقل نزلت بالكوفة، فالتسمية جاءت من صفة الأرض الرملية، وإنّ كل رملة يخالطها حصباء تسمى كوفة[3] فالتسمية عربية على الرغم من وجود مَن يدّعون غير ذلك، فحين كانت الحيرة وما جاورها تحت نفوذ الفرس كانت المناطق التي لم تكن تحمل أسماء في الأصل تُطلق عليها أسماء فارسية، فمنطقة الكوفة سماها الفرس (سور ستان) وتعني الصحراء أو البادية[4] ولا قبول لمن يدّعي إنّ اسمها من أصل سرياني أو آرامي لضعف الحجة بانعدام الصلة. وللقس سليمان الصائغ الموصلي رأي يقول:... ومشهد علي بالقرب من عاقولا وهي الكوفة[5] ويردّه

(١) الصلة بين التصوّف والتشيّع ١: ٣٠٧ وانظر: حولية الكوفة العدد ٧ ص ٣٩ بحث الأستاذ الدكتور علي سامي النشار.

(٢) الطبري/ تاريخ الطبري ٤: ٤٣.

(٣) الحموي/ معجم البلدان ٤: ٤٩.

(٤) البلاذري/ فتوح البلدان ص ٢٥٧.

(٥) جعفر محبوبه/ ماضي النجف وحاضرها ١: ٦.

قول الأستاذ الدكتور حسن عيسى الحكيم: إنّ من الثابت أن الكوفة قد خططت على مقربة من مركز فكري حيري يسمى عاقولا، وقد أتخذها السريان معقلاً لهم، وأصبح له شان علمي بعد تمصير الكوفة[1].

أي أن عاقولا وجود جغرافي قرب الكوفة وليس هو الكوفة، بل يقول إبن عبد الحق البغدادي: عاقولاء موضع في شعر[2] وأكدّ الخبير الآثاري الدكتور كاظم الجنابي: إنّ الكوفة لم تكن معروفة قبل أن ينزلها العرب[3].

الموقع:

من المؤكد أنّ اختيار موقع الكوفة لم يأت اعتباطاً بل جاء بعد تحر وترجيح مدروسين، وبتوفرّ عدة مواصفات أهمها: عنصر الأمان بعيداً عن المخاطر المحتملة كالفيضانات ومجرى الرياح وماوى البعوض، وحيث يمكن قطع الطريق على الأعداء القادمين من جهة النهر، وعرقلة تقدمهم، إضافة إلى وجود الماء وخصوبة الأرض... ويمكن منها فرض السيطرة على طول منطقة الفرات الأوسط من الناحية الحربية، وممراً للقوافل التجارية وطريق الحج إلى مكة[4].

وينقل لنا الحموي موجزاً نافعاً على لسان إبن بقيلة الغساني ذكره للقائد سعد بن أبي وقاص، يقول فيه: «هل أدلّك على أرض إنحدرت عن الفلاة وارتفعت عن المبقّة؟ قال: نعم. فدلّه على موضع الكوفة»[5]..

التأسيس:.

في سنة ١٧ هجرية -على الأرجح- اختيرت أرض الكوفة مقراً للجيش العربي الإسلامي، وأريد لها أن تكون دار هجرتهم ومحلاً لإقامتهم، ومعسكراً لحاميتهم يسيطرون على العراق وفارس[6]. واقتداءً بسنّة الرسول(ﷺ) عند هجرته إلى يثرب (المدينة المنوّرة) واستقراره فيها، أمر بتأسيس المسجد، وعليه فإنّ أي حاضرة جديدة أو محررّة يجب أن ينهض فيها المسجد أولاً، وكان الأمر كذلك. فقد حُدّد موضع المسجد في الوسط ليتيسّر لعامة المسلمين أداء الفرائض والاتصال بالوالي[7] والانتفاع من المتنوّرين في الوقوف على مبهمات الشريعة وتفاصيلها.

(١) الدكتور حسن عيسى الحكيم/ الكوفة بين العمق التاريخي والتطور العلمي ص٤٦.

(٢) مراصد الإطّلاع ص ٩١٠.

(٣) تخطيط مدينة الكوفة ص ٥٧.

(٤) لدكتور كاظم الجنابي/ المصدر السابق ص ٣٤-٣٥ وأنظر: طالب علي الشرقي الكوفة والنهضة الحسينة ص ٢٠- ٢١.

(٥) معجم البلدان ٤: ٤٩١.

(٦) البلاذري/ فتوح البلدان ص ٢٧٤.

(٧) الدكتور الجنابي/ تخطيط مدينة الكوفة ص ١٠٩.

أما تفاصيل البناء الأول فقد وردت إشارات جزئية ذكرها البلاذري في «فتوح البلدان والطبري في تاريخه، وخلاصة ما ذكر: أن المسجد في وسط المدينة وإلى جانبه دار الإمارة وبيت المال. والمسجد في مربعة غلوة من كل جانب من جوانبه، وله ظلّة في مقدّمه ليست لها مجنبات ولا مؤخرة، وكانت ظلته مائتي ذراع على أساطين رخام، وعلّموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه أحد ببنيان، وكانت مساحته الإجمالية تسع لأربعين ألف مصل.

أمّا بخصوص المرويات والأخبار العقائدية التي تناولت قدَمه وقداسته وترتيبه بين المساجد الإسلامية المعظّمة فكثيرة خصّص لها السيد حسين (حسون) البراقي مساحة واسعة في كتابه تاريخ الكوفة، معتمداً على جملة من المصادر المهمة منها: بحار الأنوار للمجلسي، وكتاب المحاسن للبرقي، وتفسير العياشي وفرحة الغري لابن طاووس وغيرها[8].

ولم يكتفِ السكان بمسجد واحد في حاضرتهم التي تضم قرابة المائة ألف شخص، فشيّدوا مساجد هي أصغر حجماً وأقل منزلة من مسجد الكوفة الجامع الكبير، ومنها مسجد ظفر وهو مسجد السهلة الحالي، ومسجد جعفي، ومسجد الحمراء وهو مسجد النبي يونس المطل على نهر الفرات في الوقت الحاضر. ومن المساجد الأخرى (المذمومة) مسجد ثقيف ومسجد الأشعث بن قيس الكندي ومسجد جرير البجلي وغيرها..

دار الإمارة:

ويسمى قصر سعد، وسماه الخليفة عمر بن الخطاب قصر الخبال[9] يقع بحيال مسجد الكوفة في قبلته، أمّا تفاصيل البناء ومواده الإنشائية فالمذكور في المصادر التي بين أيدينا لا يفرز بناء سعد الأول عن ما تصرّف به من جاء بعده إلا في أمور جزئية، وبالمجمل فإنّ دار الإمارة بناء مربّع الشكل طول أضلاعه ١٧٠× ١٧٠ متراً، ومعدل سمكها أربعة أمتار وتدعم بمجموعة من الأبراج نصف دائرية، وإنّ ارتفاع السور بأبراجه يصل إلى ما يقارب عشرين متراً، وفي القصر مرافق متعددة مخصصة للسكن، أمّا قسمها الشمالي فيتكون من قاعتين فسيحتين تعودان إلى مجموعة غرف الإدارة...[10].

وذكر البلاذري أنّ الخليفة عمر بن الخطاب أنكر على سعد بن أبي وقاص وضعه الباب والخص على القصر، وبعث محمد بن مسلمة الأنصاري فأحرق الباب والخص لكي لا يحجب القائد عن الناس[11].

(٨) تاريخ الكوفة للسيد البراقي ص ٥٣- ٥٧ ط ٤.

(٩) الطبري/ تاريخ الطبري ٤: ٤٧، أبن الاثير/ الكامل في التاريخ ٢: ٥٣٠.

(١٠) طالب علي الشرقي/ قصور العراق العربية والإسلامية.. ص ٩٠- ١٠٥

(١١) فتوح البلدان ص ٢٧٧.

السكن:

حين وجد القائد سعد بن أبي وقّاص الحَيرةَ في تنزيل القبائل باعتبار القرب والبعد عن المسجد الجامع والاتجاهات الجغرافية، كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب مستشيراً، فكان أمر الخليفة في تعديلهم باعتبار النسب والحلف والتوافق. وطبيعي أن يكون السكن في الخيام، ثم استبدلت الخيام بالغاب والقصب.. وعندما أحترق القصب استأذنوا الخليفة في البناء باللبن، فأذن لهم بشرط أن لا يزيد أحدهم على ثلاث أبيات ولا يطاولوا في البنيان فوق القدر. وهذه التفاتة محمودة تمنع المتنفذين والأثرياء من الاستحواذ على مساحات أكبر من الأرض والشموخ والتعالي على الفقراء والعامة من الناس بشاهق البنيان.

وكان على تنزيل الكوفة أبو هيّاج بن مالك، الذي قدّر المناهج على أربعين ذراعاً وما بين ذلك عشرين ذراعاً والأزقّة سبع أذرع والقطائع ستين ذراعاً[1] ثم وضعت الخطط، فقسّمت الكوفة إلى سبع مناطق عسكرية سميت الأسباع[2] فصار الجانب الشرقي من المسجد من حصة أهل اليمن وهو مواضع الكوفة لكونه يقع بين الفرات والمسجد، ونزلت نزار في الجانب الغربي، ثم أنزلت القبائل وفق المناهج، وكانت المناهج:

١- شمال المسجد خمسة مناهج.

٢- قبلة المسجد أربعة مناهج.

٣- شرق المسجد ثلاثة مناهج.

٤- غرب المسجد ثلاثة مناهج

فخُصص المنهجان ١، ٢ لقبيلتي سليم وثقيف، والمنهج ٣ لهمدان والمنهج ٤ لبجيلة والمنهج ٥ لتميم اللات وتغلب، وفي جنوب المسجد المنهج ٦ لبني أسد، والمنهج ٧ بين بعض أسد والنخع، والمنهج ٨ لبعض النخع وكندة، والمنهج ٩ بين بعض كندة والازد، وفي شرق المسجد المنهج ١٠ بين الأنصار ومزينة، والمنهج ١١ لتميم ومحارب، والمنهج ١٢ لبعض أسد وعامر، وفي غرب المسجد المنهج ١٣ لبجالة وبعض بجيلة، والمنهج ١٤ لجديلة واللفيف، والمنهج ١٥ لجهينة واللفيف[3].

ومن متممات لوازم الحياة الحضرية وجود الأسواق، وكانت أسواق الكوفة فضاءً لا بناء فيها، ولا سقوف سوى ظلال هي بواري من حصير وقصب، والنظام فيها على سنّة المساجد، فمن سبق إلى موضع فهو له حتى يفرغ منه، هكذا قال الخليفة عمر بن الخطاب... وبقيت الأسواق على حالها حتى ولاية خالد بن عبد الله القسري، فهو أول من بناها بناءً محكماً[4].

ويتوقف ازدهار الأسواق وتنوع معروضاتها، وتعدد المهن فيها على معطيات الزراعة والتجارة والمهارات لتوفير متطلبات الحياة اليومية، فالسكان بحاجة إلى أنواع المحاصيل والمواد الغذائية والأعمال الضرورية كالخياطة والبقالة والقصابة وملحقاتها. ودخلت أسواق الكوفة بعض الصناعات مع الوافدين من الحيرة وغيرها كالصياغة والنسيج وصناعة الأواني وأدوات الحرب والزراعة[5].

ولابد للزراعة من مصادر مياه؛ يقول ماسنيون: يوجد قنال في الجنوب الشرقي وهو نهر البويب، وفمه عند دار الرزق، يأخذ من الفرات، وكانت عنده وقعة أيام الفتوح بين المسلمين والفرس في أيام الخليفة عمر بن الخطاب، وكان مجراه إلى موضع دار صالح بن علي بالكوفة ومصبّه في الجوف العتيق[6].

وفي مقال الأستاذ الدكتور صباح محمود محمد عميد كليّة التربية/ الجامعة المستنصرية في العدد الأول من حولية الكوفة، يذكر فيه أكثر من عشرة أنهار وعيون، ولم يذكر تاريخ استحداثها أو إستثمارها، ربما كان ذلك بعد فترة خلافتي عمر وعثمان.

الجبّانات (المقابر) في الكوفة.

في الغالب أن تكون لكل حاضرة مقبرة، ولكن في الكوفة مقابر لقبائل ومقابر لأشخاص، ذكر منها الآثاري الفرنسي لويس ماسنيون أكثر من عشر جبّانات، وكان أهمها جبّانة الثويّة، وفيها مدافن القرشيين والثقفيين[7].

تأثير البيئة الجديدة على السكان.

من خلال الحراك العفوي للمنظومة الاجتماعية في البيئة الجغرافية الجديدة ووجود التباين والامتيازات بين القبائل العربية والموالي والوافدين... ظهر أن بعض الناشطين والقادة المتميزين يعيشون اصطراعاً خفيّاً يطفح بعضه بين الحين والحين ليعلن عن تصرفات ربما تصنّف على إنها غريبة مولّدة، بينما يظهر عند الآخرين اضطراب وعدم وضوح رؤية بسبب

(١) أبن الأثير/ الكامل في التاريخ ٢: ٥٢٩.

(٢) ماسنيون/ خطط الكوفة ص ٤٠، مجلة الاعتدال النجفية/ المجلد ٤ الجزء١ ص ١٤-١٩ مقال للشيخ علي الشرقي فيه تفاصيل دقيقة عن القبائل التي سكنت الكوفة في أول عهدها وأماكنها وخططها وجباناتها وصحاريها والإقطاعات التي أعطيت للزعماء والنابهين فيها قرية في عهد الخليفة عمر والخليفة عثمان..

(٣) الدكتور كاظم الجنابي/ تخطيط مدينة الكوفة ص ٧٦.

(٤) اليعقوبي/ كتاب البلدان ص٧١، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٨٤.

(٥) حولية الكوفة/ العدد الخامس ص٢٤٤ مقال لطالب علي الشرقي.

(٦) خطط الكوفة ص٧٠.

(٧) المصدر السابق ص٧٢ - ٧٣.

الهدم السريع للموروث القيمي، إنها نتيجة يمكن ولادتها في أجواء الحواضر الجديدة لمن يفتقر إلى التجربة، وقد تتولد منها مواقف حادة أو إصطفافات تعكّر صفو التعايش المرجو بين السكان، وذلك بإحياء الأحقاد والثارات القديمة وسموم التفاخر..

وعندما نتأمل الخليط الذي تشكل منه سكان الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب نجد فيه من أوائل الصحابة الذين بايعوا الرسول(ﷺ) تحت الشجرة، ومن البدريين، وهم أصحاب المنزلة السامية والدرجات العالية في الإيمان. ونزل الكوفة المئات من أشراف العرب ووجوه أهل المنزلة والإعتبار، بأمر من الخليفة عمر، فقد ورد عنه إنه قال: والله لأضربنّ ملوك العجم بملوك العرب؛ ولم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا بسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم[1].

إن هذا الوجود النوعي لم يساهم في حمل السواد الأعظم من سكان الكوفة على ركوب جادّة الصفاء المجتمعي، وتغليب لغة الشرع ونسيان تقاليد الجاهلية. لعل السبب يكمن في سياسة الدولة المرتبكة وخاصة في عهد الخليفة عثمان بن عفان.

كما أن ترتيب المجاميع السكانية وفق اعتبارات دنيوية، وتوزيع الأموال والأقطاع والمناصب على المقربين حرَفَ الأغلبية باتجاه المنافع الذاتية.

وعندما وضعت الدواوين صنفت الناس على منازلهم، فبدؤوا ببني هاشم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه على الخلافة فلما نظر عمر قال: أبدؤوا بقرابة النبي(ﷺ) الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله[2].

والحقيقة إنّه بهذا الفرض أوجد تقسيماً للأموال يختلف عما كان في عهد من سبقه بل وفي عهد رسول الله(ﷺ).. أما الخليفة عثمان فقد خالف الجميع، ففرّق مال المسلمين بين أهله وأقاربه ومن ناصروه، حتى كان يعطي خراج بعض أقطار الإسلام لبعض الذين كان الرسول(ﷺ) يبغضهم ولمن طردهم من المدينة -وأعادهم عثمان- إن العصبية القبلية وسوء الإدارة غلبت عليه، فادى ذلك إلى قتله من قبل بعض المتضررين مادياً ومعنوياً.

(١) الطبري/ تاريخ الطبري ٣: ٤٨٧. في هذا النص سرٌّ سكت عن كشفه الطبري، فهل كانت نيّة الخليفة تطابق ظاهر الخبر أم أنّه أراد أمراً آخر، فمنطق السياسة يقول: إن الخليفة عمر ضرب عصفورين بحجر وكان الهدف الأهم إبعاد تلك النخب الفاعلة في مجتمع المدينة وإنهاء أصوات المعارضة المحتملة.

انظر: الكوفة والنهضة الحسينية هامش ص٤٥.

(٢) السيوطي/ تاريخ الخلفاء ص١٤٣.

بقي أنْ نشير إلى أنّ القبائل التي سكنت الكوفة لا يجمعها النسب الواحد والوطن والمعارف والفوارق الاجتماعية، ومع ذلك هي عربية ولكنها لم تستطع الحفاظ على هذه الهوية نقيّة خالصة بسبب الاختلاط بأقوام أعلنوا إسلامهم أو عاشوا بينهم وكان منهم أربعة آلاف من الفرس الذين شاركوا في معركة القادسية ثم دخلوا تحت خيمة الإسلام، ثم أتى الكوفة قوم من السريان ممن كانوا يسكنون الحيرة ونواحيها، ونزلها عدد من النبط وهم سكان البطائح، ثم هاجر إليها عدد من نصارى نجران، أما اليهود فقد نزلوها سنة ٢٠ هجرية، وأزداد عددهم فيما بعد[3].

إنّ لهذا الاختلاط قصير العمر آثاراً غاية في الأهمية منها: صعوبة الإلتقاء على منهج في السلوك وفي العقائد؛ نعم ربما تميل الأغلبية إلى توافقات مرحلية ولكن الطبائع ومفردات النشأة تبقى تؤثر في التوجهات الجوهرية وردود الأفعال بحيث يصعب تحديد هوية السكان العامة في العقيدة والولاء[4]..

ومن معطيات الأجواء الملغومة في تلك الفترة ظهور بوادر الصراع بين العرب والموالي، وهم أسرى الحرب الذين اعتنقوا الإسلام فاعتقهم أسيادهم فاصبحوا موالي لهم، وقد دخلوا التنظيم القبلي العربي وأصبح موالي كل قبيلة ينتسبون اليها، ويحاربون في صفوفها[5] ومع ذلك لم يحصلوا على كامل حقوقهم، ومساواتهم مع العرب «فكان العرب لا يكنّونهم بالكنى، ولا يمشون معهم في الصف، ولا يتقدمون في المواكب[6] كما أطلق العرب على الموالي أسماء لا يرضونها مثل نبط والحمراء[7] أمّا زواج الموالي بالعربيات فقد اعتبروه جريمة نكراء يستحق مرتكبها أقسى العقوبات، ويحق للأمير أو الوالي أن يفرّق بينهما[8] وحُرِموا من تولي المناصب العامة وقيادة الجيش... واتسعت الأمور أكثر في عهد الخليفة عثمان، فقد عاش الموالي الفقر والاستصغار بل والاحتقار، مما دفع الكثير منهم للالتحاق بالثورات التي تقوم بوجه المستبدّين[9].

إنّ المجتمع الكوفي الكبير بعدد سكانه المختلفة أجناسهم وأهواؤهم وموارد عيشهم ومقاماتهم الاجتماعية يحتاجون حتماً إلى جملة من القوانين والأنظمة التي تدير شؤونهم،

(٣) الدكتور كاظم الجنابي/ تخطيط مدينة الكوفة ص٤٢-٤٣.

(٤) طالب علي الشرقي/ الكوفة والنهضة الحسينية ص٤٥.

(٥) الدكتور محمد حسين الزبيدي/ الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الاول الهجري ص٧٤ - ٧٥.

(٦) المصدر السابق ص٧٧.

(٧) المصدر السابق ص٧٨.

(٨) المصدر السابق ص٧٨.

(٩) الدكتور عبد الرسول الغفاري/ دعبل الخزاعي ص١٧.

وتحمي بعضهم من البعض الآخر ومن أهم تلك الأنظمة النظام الأمني الذي يتولى الإشراف على تنفيذ الأوامر وتوزيع الحقوق المالية، مما أستوجب إيجاد جهاز له عدة وظائف أهمها وظيفة رؤوس الأسباع الذين يتم اختيارهم عادة ممن لهم نفوذ متميّز بين القبائل... ويُعرفون بالباس والنجدة والتجربة في الحروب، وقد زوّدوا بسلطة عسكرية وإدارية ومالية، فكانوا في أوقات السلم يهتمون بشؤون العامة ويحكمون في الخلافات كما يوزعون العطاء، وهم مسؤولون تجاه الوالي أو الأمير بصورة مباشرة، كما يتولون الوقوف بوجه الفتن وردع الأعمال المعادية للدولة[1]..

ومن أساليب الضبط والسيطرة على الوضع العام تمَّ تقسيم القبائل الكبيرة إلى وحدات صغيرة، واستحدثت لها وظيفة يُطلق عليها أسم «عريف» تُحدد له واجبات خاصة منها: توزيع العطاء وتنظيم السجلات باسماء المقاتلة والنساء والأطفال وتجهيزاتهم وعدد مواليهم، وهو مسؤول مسؤولية كاملة عن الأمن والنظام[2]..

ومن الأنظمة التي يحتاجها الناس في حياتهم: نظام العسس أو حراس الليل، وأول من أدخل هذا النظام في الكوفة الخليفة عمر بن الخطاب..

الولاة وإدارة الحكم:

لم تكن الكوفة قبل سنة ٣٦ هجرية إلا ولاية تابعة لمركز الحكم في المدينة المنوّرة فترة حكم الخليفة عمر والخليفة عثمان، يدير شؤونها الولاة وكانت ولاية الأعمال في بادئ الأمر أشبه بالاحتلال العسكري، وكان العمّال أو الولاة عبارة عن قوّاد الجند... والإمارة مهمة يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله فيفوّض إليه إمارة الإقليم على جميع أهله، ويجعله عام النظر في كل أموره، وأبرزها:

١- تدبير الجيوش وترتيبهم، وتقدير أرزاقهم.

٢- النظر في الأحكام وتقليد القضاء والحكام.

٣- جباية الخراج وقبض الصدقات، وتقليد العاملين فيها وتفريق ما أستحق منها.

٤- حماية الدين والدفاع عن الحريم.

٥- إقامة حدود الشرع.

٦- الإمامة في الصلوات.

٧- تسيير الحج، وجهاد العدو المتاخم، وقسمة الغنائم على المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس[3].

(١) المصدر السابق ص٤٧ - ٤٨.

(٢) المصدر السابق ص٥٠ - ٥١.

(٣) السيد حسين البراقي/ تاريخ الكوفة ص٢٤٢ - ٢٤٣.

إنّ اختيار الوالي منوط بثقة الخليفة، وقد تتكشف أمور غير متوقعة تظهر من خلال زحمة العمل ومغريات السلطة والمال فيضطر الخليفة إلى عزله وربما لمحاسبته واستبداله بوالٍ جديد، أمّا إذا كان الاختيار بدوافع علاقات شخصية أو روابط أسريّة -بغض النظر عن المواصفات المطلوبة، فالخليفة هو المسؤول عن النتائج أمام الله وأمام الناس..

وحين تمَّ تمصير الكوفة على يد القائد سعد بن أبي وقاص ولّاه الخليفة عمر بن الخطاب عليها، وأقرّه الخليفة عثمان بن عفان زمناً ثم عزله. وولّى الخليفة عمر المغيرة بن شعبة وعزله عثمان، وتولى عمار بن ياسر الكوفة في عهد عمر، ولما عزل الخليفة عثمان سعد بن أبي وقاص، ولّى أخاه لأمّه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ثم عزله وعيّن مكانه سعيد ابن العاص، وقد أخرجه أهل الكوفة وأبدلوه بابي موسى الأشعري، وكتبوا إلى عثمان فاقر[4].

وفي تلك الحقبة التي امتدت قرابة العشرين سنة، كان للولاة دور فعّال في تسيير حياة الناس في الكوفة اقتصاديا واجتماعياً وسياسياً، فمنهم من نهض بالمهام وحقق تقدماً ملحوظاً، ومنهم من تراجع وضعف أو تنمّر وتجبّر أو أساء فا ستحق العزل أو الطرد.

وهناك حقيقة تاريخية ظاهرة في المجتمع الكوفي هي عدم الثبات على موقف والرغبة بالمعارضة وخلق الأزمات، وذلك بسبب تعدد الو لاءات وضعف الالتزام بالعهود وعدم التخلص من آثار الموروث الجاهلي في سلوك بعض شرائح العامة، وقد يكون وراء ذلك ممارسات بعض الولاة في الجوانب الاقتصادية بمجانبة العدالة في العطاءات أو الاستحواذ على المال العام بعيداً عن الثوابت الدينية، وتجاهلاً لسنة الرسول الأعظم(ﷺ) في هذا المجال حيث لم يُعرف في عهده(ﷺ) شيء من التمييز العرقي والسابقة والقرابة..

والذي يُحمد لبعض الولاة هو العمل على ترسيخ ظاهرة التعايش بين الأديان، فالتنوّع الديني في الكوفة حقيقة تاريخية فإلى جانب المسلمين الذين يشكلون الكم الأعظم، هناك أقلّيات من المسيحية واليهودية وبقايا معتقدي ديانات قديمة لم يبارحوها تماماً، كما أنهم لم يمارسوا نشاطات تستفز مشاعر المسلمين. وقد وحدّت السماحة الإسلامية هذا الخليط وكذلك الولاء القبلي والمصالح المشتركة لا سيما في الأمور الخدميّة والمهارات المتعددة في مجال الزراعة والصناعة والتجارة والطب وبعض الفنون التي عُرفت بها أديرة الحيرة..

إنّ التعايش السلمي النسبي هذا أنضجته التوجيهات العليا والأنظمة المرعية قبل أن تختمر فطائر الفتن والصراعات الحزبية والطائفية..

(٤) المصدر السابق ص٢٤٦ - ٢٤٧.

النشاط العلمي والثقافي في الكوفة في الثلث الأول من القرن الأول الهجري

باختصار مفيد أقول: إنّ المجتمع الكوفي المنعوت بجيش الفتح كان مطعّماً بعناصر نوّرها التمدن والتديّن، وهم من قبائل عربية عريقة أغلبها من اليمن السعيد، وفيهم من الصحابة الأوائل الذين ملؤوا أجواء جامع الكوفة بروح الرسالة وتعاليم القرآن، وكان في طليعة المسؤولين الصحابيان الجليلان اللذان أرسلهما الخليفة عمر بن الخطاب، وكتب إلى أهل الكوفة: «أمّا بعد فإني بعثت إليكم عماراً أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله(ﷺ) فاسمعوا لهما واقتدوا بهما، وإنّي قد آثرتكم بعبد الله على نفسي»[1].

وكان مسجد الكوفة المعظّم المؤسسة العلمية الأهم في تاريخ الكوفة القرآني والقضائي والتوعوي، وله الدور الأول كحاضنة لطلاب المعرفة وأول مدرسة لإقراء القرآن الكريم، فقد جلس القرّاء فيه يلقّنون طلبة القرآن القراءات التي رووها بأسانيدهم، وكان أبو عبد الرحمن السلمي شيخ القرّاء أولَ من جلس للإقراء في مسجد الكوفة[2]..

وتناول العرب المسلمون القرآن الكريم بالدراسة والتفسير، ومن أوائل الذين عرُفوا بالتفسير في الكوفة مؤسس المدرسة عبد الله بن مسعود الذي كان منهجه يقوم على تلاوة القرآن ومن ثم تفسيره[3].

كما كان المسجد موطن الفقه ومستقر الفقهاء، وإنّ عدداً من الصحابة كان لهم دور متميّز في إقامة مدرسة فقهية فاعلة...

وفي مجال الشعر كان ثمة اهتمام، وكذلك الخطابة والمراسلات والأنساب مما حفظ جزءاً لا يستهان به من أيامهم وأخلاقهم ومفاخراتهم وأمور حياتهم الأخرى..

ومعلوم أن التدوين جاء متأخراً إلا في أمور وثّقها بعض من يحسنون الكتابة وخاصة في تدوين الحديث النبوي الشريف، على الرغم من منع الخليفة عمر بن الخطاب لتدوينه بحجة خشية اختلاطه بالقرآن حسب ما تراءى له.

لقد حفظ النابهون في ذاكرتهم ما كان مدار بلواهم واهتماماتهم وما فُرض عليهم من أوامر وفتاوى، وتناقلها الرواة والمخبرون، ولم يسلم النقل من التحريف والتصحيف والزيادة والنقص والوضع، وهناك القليل ممن حافظوا على الأمانة والرغبة في دقة التوثيق، وبهم تبيّن الحق من الباطل...

وفي مجال العلوم والفنون فلا ننسى دور الحيرة ونشاط أديرتها بما عُرف عنها من أدب وعلوم وفنون تأثر بها المجتمع الكوفي، ومن ذلك الخط العربي الذي عُرف بالخط الكوفي، وبعض بدايات النقش والتزويق إضافة إلى الموسيقى والغناء، فقد وُجِدَ مَن يرغب بهما من بعض الشباب المتنفذين، وبعض رجال السلطة المتسامحين..

لقد كان أمام الكوفيين مضمار معبّد للنهوض والارتقاء لو أنهم سلكوا الطريق الذي رسمه القرآن وأسّسه رسول الله(ﷺ) كما أراد الله جل جلاله، ولكنهم مالوا مع الحكام وأهوائهم وتباينُ أوامرهم واختلاف اجتهاداتهم، وتحزّبوا وتناحروا وضعف وقوفهم مع الحق، وتمكن الطمع وحب السلطة منهم وتجذّر الخلاف (وصار الدين لعق على ألسنتهم يحيطون به ما درّت معايشهم فإذا محُصوا بالبلاء قلّ الديانون). هذا ما وصفهم به سيد الشهداء الأمام الحسين بن علي بن أبي طالب(عليه السلام).

وبهذه الصورة استيقظت الفتنة، وكانت نتائجها مرعبة، أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفان.. فاضطربت الأوضاع، ورفعت الأفاعي الطامعة رؤوسها لتجد ما حُرّم عليها في متناول اليد، وكان لابد من خليفة يتولى إدارة الحكم، فتدخّل اللطف الإلهي في تقويم المسيرة وتحقيق الإرادة التي اختارت الأفضل في غدير خم وإحياء سنّة الرسول الأعظم(ﷺ) فكان إصرار الثوّار الذين أنهوا فترة التسلط الأموي الأول، على اختيار أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) خليفة وإماماً...

وتسلم الإمام(عليه السلام) السلطة بالبيعة العامة التي خلت من الإكراه وبدأ بتنفيذ منهاج حكمه...

والحقيقة: إنّ سوء حظ المسلمين أن يأتي الصلاح والإصلاح بعد أن اتسعت الهوة بين ما أعتاد عليه الناس من تخمة المال ورخص الذمّة والسعي وراء المناصب وترف العيش، وبين الصورة الناصعة التي ورثها أمير المؤمنين(عليه السلام) من سيد الأنبياء والمرسلين(ﷺ) وأراد أن يعود بهم إلى الصراط المستقيم، ولكن: كان حزب الشيطان أسبق ولم يستطع الإمام تنفيذ كامل برامجه التي وضع أسسها وعرّف المؤمنين المخلصين مفرداتها وكيفية الحفاظ عليها، فقد شغله أعداء الإسلام وأسرى الأصنام بثلاث حروب طاحنة خلال مدة حكمه التي لم تكمل خمس سنوات قضاها في الكوفة المدينة التي أضفى عليها الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام)، شرفاً جديداً وأدخلها التاريخ من أوسع أبوابه بجعلها عاصمة الخلافة الإسلامية العلوية بعد المدينة المنوّرة بنور النبي الأكرم محمد(ﷺ).

❖ ❖ ❖

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبير ٦: ٧.

(٢) مجلة الكوفة/ المجلد الأول - العدد الأول ص٤١ بحث الدكتور حسين أمين.

(٣) حولية الكوفة/ العدد الأول ص ١٩٥ - ١٩٦ بحث الدكتور هادي حسين محمود - كلية الآداب - جامعة بغداد.